نفس كبيرة ثائرة وعقل راجح مكبم :

السيد جمال الدين الأفغانى

للأستاذ حمدى الحسينى

— ١ —

كنت فى مجلس من أصحابى الشباب وكنت أتحدث إليهم عن السيد جمال الدين الأفغانى فأعجبوا بروحه القوية المتدفقة نحو الحياة والحرية . وكيف لا يعجب شباب العرب بروح جمال الدين وهم يتحفزون للوثبة الكبرى وراء الحياة والحرية ؟ وكيف لا يتخذون من روحه القوية المتدفقة الوثابة حافزا لهم فى جهادهم العظيم للحرية والاستقلال والوحدة . فطلب منى بعض أولئك الشباب أن أكتب كلمة عن هذا الرجل العظيم فى مجلة الرسالة الغراء ليتعرف عليه أكبر عدد ممكن من شباب العرب. وهأنذا أحقق رغبتهم راجيا أن أوفق إلى تصوير روح جمال الدين تصويرا يجعل منها نورا يستضىء به الشباب العربى فى جهادهم القوى ، وتارا تأكل هذا الاستعمار الغاشم فتقوض دعائمه وتذهب بكيانه وميانه

يقسم علماء النفس الشعور الإنسانى إلى ثلاثة أقسام ، المعرفة والوجدان والنزوع . وهذه الأقسام الثلاثة للشعور الإنسانى مترابطة متداخلة كتيار الماء الذى يدور على نفسه . ترى الوردة الجميلة مثلا متفتحة الوجنات على غصنها الرطيب (هذه هى المعرفة) فتروقك تلك الوردة الجميلة ويلذ لك منظرها ورائحتها (وهذا هو الوجدان) فتقبل عليها فتقطفها لتستمتع بها لمسا وشما (وهذا هو النزوع) . تلمس يدك النار وهذه معرفة؛ فتتألم من حرها وهذا وجدان فتزيح يدك عنها أو تزيحها عن يدك وهذا نزوع . تعرف الشىء فتلتذ به أو تتألم منه فتنزع نحوه أو عنه جاريا للذة أو دافعا للألم ؛ وهذا هو الشعور الإنسانى نوعا ، وأما كما فليس الشعور الإنسانى يتساوى فى أقسامه . وهذا الاختلاف فى الكم هو الفارق بين أفراد البشر خيرا وشرا ، كمالا ونقصا ، قوة وضعفا . والبشر بهذا الاختلاف فى كمية أجزاء الشعور ينقسمون إلى ثلاثة أقسام ، قسم قويت فيهم المعرفة وضعف الوجدان والنزوع كالعلماء . وقسم قوى فيهم الوجدان وقلت المعرفة وضعف النزوع كالفنانين . وقسم قوى فيهم النزوع وقلت المعرفة وضعف الوجدان كالقادة والطغاة . والعجيب فى أمر السيد جمال الدين الأفغانى أنه مكتمل جوانب الشعور كيفية وكمية ؛ فبينما تراه من ناحية المعرفة نابغة عصره وباقعة زمانه تراه قوى الوجدان مرهف العواطف يحس بالألم مع الإنسانية كافة أفرادا وجماعات ، ويشمل السرور جوارحه إذا ما رأى الخير شاملا لبنى الإنسان . وبينما تراه كذلك من كثرة المعرفة وقوة الوجدان تراه فى النزوع إلى العمل والتوجه إلى الهدف كالصاعقة المنقضة والشهاب الثاقب والسهم المنطلق والأسد الكرار ، ينصب على هدفه انصبابا قويا عنيفا حازما لا يعوقه كل ما فى الحياة من صعوبات ومتاعب ، يقتحم ولا يبالى ما يعترضه من صعوبات وأخطار ، أجبال حديد أم جبال نار

أما تفاعل جمال الدين مع بيئته وأثر ذلك التفاعل مع تلك البيئة فهو ما أتحدث عنه الآن

اختلف مؤرخو حياة جمال الدين فى تعيين موطنه الأصلى هل هو إيران أو أفغانستان؛ فبعضهم قال أنه إيرانى الأصل أفغانى النشأة ، وبعضهم جزم بأنه أفغانى الأصل والنشأة ، ولكنهم اتفقوا اتفاقا تاما على أنه ولد فى مدينة أسد آباد أو أسعد آباد من أعمال كنر فى الأفغان وذلك سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة وألف ميلادية أى فى أواخر النصف الأول من القرن التاسع عشر . وأن أباه يدعى السيد صفتر أو صفدر ومعناه بالفارسية الشجاع المقتحم ، وأن عائلته ذات حول وطول ونفوذ وسلطان فى مقاطعة كنر خصوصا وبلاد الأفغان عموما لانتسابها إلى السيد على الترمذى المحدث المشهور الذى يتصل نسبه بالحسين بن على بن أبى طالب كرم الله وجهه

ولد السيد جمال الدين الحسينى الأفغانى وأهله وعشيرته فى ذروة العز وسنام المجد فقضى ثمانى سنين يتقلب بين أعطاف العز والمجد ويرتع فى أحضان العظمة والسلطان . حتى امتدت إليها يد الأمير دست محمد خان الذى آل إليه الأمر فى الأفغان

بعد انقسامات وحروب طويلة وعريضة ، فسلب من تلك العائلة الكريمة ملكها وسلطانها وأجلاها عن أرضها وموضع عزها ونقلها إلى مدينة كابول عاصمة الملك لتظل تحت سمعه وبصره فيأمن انتقاضها ويضمن خروجها عليه ومزاحمتها له . قضى جمال الدين الطفل فى مدينة كابل عشر سنين تلقى فيها العلوم العربية : التاريخ والشريعة والتفسير والحديث والمنطق والتصوف والرياضيات والفلك والطب وغيرها من العلوم النظرية العملية . ثم عرض له أن يذهب إلى الهند لاستكمال علومه على الطريقة العصرية فذهب إليها وقضى فيها ردحا من الزمن عب فيه من العلم ما وسعه عقله الكبير وهمته العالية . وكان حينذاك مشرفا على العشرين من عمره . فهل يرجع إلى كابول وفى نفسه منها حزازات وجروح :

واحتمال الأذى ورؤية جانيه غذاء تضوى به الأجسام

أم يذهب لأداء فريضة الحج ، يؤدى فرضا لله عليه ويسرى عن نفسه الكبيرة ما تحس من الألم لما أصاب عائلته من تغريب ، ووطنه من فوضى واضطراب ؟ ذهب إلى الحج ولكن بعد أن رسم لنفسه خطة سفر تمكنه من زيارة أنحاء الجزيرة العربية لدراسة بلاد العرب دراسة علم ودراسة سياسة . درس جزيرة العرب وأدى فريضة الحج فهفت به نفسه قائلة : لا بد مما ليس منه بد . لا بد من العودة إلى الأفغان . عاد إلى الأفغان وشاء الله له أن يصبح فى سلك رجال حكومة دوست محمد خان ، وما لبث أن نال إعجاب الأمير واحترامه وأصبح أشد لزوما له من الهواء والماء ، فصحبه فى حروبه وغزواته كما صحب شاعر القوة أبو الطيب المتنبي سيف الدولة فى حروبه وغزواته مع الفرق بين صحبة الرجلين اصاحبيهما ، فأبو الطيب صحب سيف الدولة لأوقات الفراغ وساعات التسلية . وأما جمال الدين فصحب دوست محمد لأوقات الشدة وساعات الخطر . سار دوست محمد إلى مدينة هراة ليفتحها وسار معه جمال الدين فحصر المدينة وضيق عليها ابتغاء فتحها ، وكان جمال الدين العقل المدبر لدوست محمد واليد الحازمة له فى عمله الحربى ؛ ولكن شاء الله أن يموت الأمير قبل فتح المدينة ففتحت على يد جمال الدين . وهناك ولى الامارة بشير على خان أصغر أولاد دوست محمد فأشار عليه وزير من وزراء السوء أن يقبض على إخوته ويعتقلهم خوفا من مزاحمتهم له ، وكان من أولئك الإخوان فى جيش هراة الفاتح ثلاثة وهم محمد أعظم ومحمد أسلم ومحمد أمين . فانتصر جمال الدين لمحمد أعظم ودافع عنه عند الأمير فلم يفلح ، فلم الأخوة بما يبيته لهم أخوهم فذهب كل واحد منهم إلى ولايته التى كان يليها من قبل واعتصم بها فاندلعت نار الفتنة فى البلاد واشتدت وطأة الحروب بين الأخوة المتقاتلين حتى آل الأمر إلى محمد أعظم فارتفعت منزلة جمال الدين عنده فأحله محل الوزير الأول وعظمت ثقة الأمير به حتى أصبح لا يورد ولا يصدر إلا عن رأيه . ولكن هيهات أن يستتب أمن فى بلاد يجاورها الإنكليز ، فقد أخذ الإنكليز يمدون أصابعهم إلى هذه البلاد فاتفقوا مع (بشير على) ضد أخيه محمد أعظم لقاء منافع لهم فنثروا الذهب فى البلاد بحنة ويسرة شأنهم فى كل حال تشبه هذه الحال ، فبيعت أمانات ، ونقضت عهود ، وتجددت خيانات . وبعد حروب هائلة تغلب بشير على يدهب الإنكليز ودسائسهم على محمد أعظم ، ففر محمد أعظم إلى بلاد إيران ضحية من ضحايا الاستعمار الإنكليزى الغاشم

الكلام بقية

محمدى الحسينى

ظهر المجلد الثالث
من كتاب
وحى الرسالة
للأستاذ أحمد حسن الزيات بك